وهو يتعجل حين يعتبر أن الإسلاميين، وهم أيضاً ليسوا كتلة واحدة متجانسة، سيكونون جزءاً مشاركاً في مشهد سياسي متنوع يقبل الجميع. فالحالتان التونسية والمصرية تدفعان إلى اعتماد الحذر والنسبية من خلال متابعة تصرفات بعض الأطراف الإسلامية، الأمر الذي يقتضي التشديد على تمايزات تلك الأطراف ووجود تيارات ديمقراطية تمارس السياسة كما في مثيلاتها العلمانية، وتيارات أُخرى تعتبر نفسها المنتصر الوحيد، وأن لها الحق في توزيع ما تراه ملائماً من كعكة الانتصار.

ويغيب عن المؤلف في مجمل صفحات الكتاب، موضوع الجيش ودوره الحاسم في انتصار الثورتين التونسية والمصرية على الرغم من الاختلاف بينهما. وهذا الجانب يمكن أن يضفي على الثورتين مثالية بعيدة عن مسارات التحول التي تستلزم روافع موضوعية وحاسمة، الأمر الذي يشرح، في المقابل، جزءاً من تعثر التحركات الاحتجاجية الأخرى وانغماسها في مسارات دموية وصدامية معقدة.

وفي موقف لافت، يميّز علي حرب بين الحريات والمطالبين بها، فيجزم أن احتجاجات البحرين، التي قُمعت بالدم والنار، واستدعت تدخلاً عسكرياً خليجياً صريحاً، هي ذات طابع فئوي وليست جامعة، وفي هذا ظلم وتخلّ واضح عن الموقف المبدئي الذي اعترى مجمل فقرات الكتاب، والذي لم يميّز بين سعي وآخر نحو الحرية والكرامة والحقوق. ولربما يعبّر هذا عن تموقع أيديولوجي ما فتئ الكاتب يندد به لدى الآخرين. وقد تبين هذا جلياً في معالجة الحالة اللبنانية التي اعتبر الكاتب أنها كانت السباقة إلى الانتفاض في المنطقة العربية مع "ثورة الأرز" في سنة ٢٠٠٥، معتبراً أن مطالبها الأساسية كانت المحكمة الدولية الخاصة باغتيال رئيس الحكومة رفيق الحريري وسلاح "حزب اللّه"، الأمر الذي يحد من منظورها الشامل المرتبط نظرياً بالحرية والتخلص من الوصاية ومن قيادات المجتمع السياسية والعائلية والطائفية التقليدية، كما عبّر عنها الشهيد الصديق سمير قصير في أكثر من نص، والتي سرقها فيما بعد، بعض هذه القيادات نفسها لمصلحة هذا الطرف أو ذاك. إن إسناد الكاتب الحرب اللبنانية الأهلية إلى العمى الأيديولوجي وشعارات المقاومة والاشتراكية، هي ترجمة واضحة لموقف سياسي أُقحم في عرض ممتع ودقيق للثورات العربية، وربما كان له أن يأتي في مجال آخر، أو في كتاب آخر لا يحمّل ربيع العرب بعض أمطار المواقف.

سلام الكواكبي
كاتب سوري

مائة خطوة من الثورة: يوميات من ميدان التحرير

أحمد زغلول الشيطي

بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، ٢٠١١. ١٨٤ صفحة.

في هذا الكتاب يقدم أحمد زغلول الشيطي يوميات غير منقحة وعفوية وطازجة من دون رتوش عن تجربة الثورة المصرية. يقول: "أكتب بسرعة لأستبق فعل الذاكرة الخوّان" (ص ٥٥). لم ينتظر مرور الوقت كي يهضم الحدث ويأخذ مسافة منه، وإنما فضّل أن يسجل لحظات الثورة كما رآها من دون فلسفة أو تعقيد. يأخذنا الكاتب إلى ميدان التحرير حيث نستمع إلى أصوات الحشود وهتافاتها. نجلس معه على شرفة شقته التي تقع في مبنى مطل على الميدان في شارع قصر النيل، ونتابع خطواته بين الحشود ونرى المواجهات بين شباب الثورة وبلطجية السلطة. النص خليط من اليوميات

الشخصية والريبورتاج الصحافي الطويل والدقيق، فالكاتب ليس مراقباً فحسب، بل هو مشارك وملتزم بالثورة وبمبادئها أيضاً. يجس نبض الشارع ويتماهى معه. يقضي في الميدان ثلاث أو أربع ساعات ثم يعود إلى شقته المطلة على الميدان. الثورة تلتصق به. يفتش، كما يقول، "عن شيء ما، عن عمل ما، فأصبح جزءاً من هذا الشيء الذي يتخلق أمامي" (ص ٦٣)، فيصير تدوين يوميات الثورة هو الإطار الذي تمتزج فيه الكتابة بالفعل التاريخي. يردد شعارات الثورة وينتشي بها: "شغف غريب يجتذبني للعودة دائماً، رغم العناء، ورغم الخطورة الشديدة" (ص ٦٣ – ٦٤). يخاف أن ينتهي "هذا الشيء"، لذلك يرغب "في تسجيل أكبر قدر ممكن مما رأيت" (ص ٦٤). يخاف أن ينسى وأن تضيع تفصيلات هذه الثورة التي انتظرها طويلاً، هو الأربعيني الذي ينتمي إلى جيل خيبات الثمانينيات. هاجس التدوين يسكن الكاتب. يراقب ويسجل ولا يهمل تفصيلاً، ولا يكترث لعمله كأديب. فهو منذ اليوم التالي من بدء الحراك الشعبي المطالب بسقوط نظام حسني مبارك، يقرر أن يكتب في مدونته في "الفايس بوك" ما يشاهده بأم العين "استباقاً لفعل الذاكرة" (ص ٨٨)، فهو يعي أنه أمام حدث تاريخي. ومع أنه لا يكاد يصدق ما يراه، إلاّ إنه يصر على الكتابة والمشاركة. ولا يخفي الكاتب إعجابه بشباب الثورة ودهشته أمام إبداعاتهم: "شعاراتهم بسيطة وجذرية وبلا حسابات، تحذف الترهل والرطرطة من أمامها" (ص ٨)، لكنه يكتب بأسف: "كان البعض من محترفي العمل السياسي يرون أن هؤلاء الشبان مجانين. كيف يصرّون على المبيت في الميدان دون تخطيط مسبق؟" (ص ٨). ردة فعل قسم من المثقفين جعلته "صامتاً ويائساً وهارباً إلى الفن، أغار من هؤلاء الشباب الذين كسروا حاجز الخوف المستحيل، أغار من قدرتهم على تصوّر عالم آخر، ومن قدرتهم على البدء في تنفيذه، وهو ما لم يكن متاحاً لي" (ص ٤٤).

ينقل بالتفصيل مشاهداته عن الثوار والمتاريس. يردد كلمات الشاهد: "رأيت"، "شاهدت"، "رأيت بعيني". تنقل عيناه ما تراه ككاميرا متنقلة بين الحشود والميدان والشوارع المتفرعة منه. ينقل كيف شاهد الشارع ينظّم نفسه في المتاريس، وطريقة التواصل بين الثوار، وكيف ابتكروا إشارات وأصواتاً للتواصل من شارع إلى شارع، ومن أول الميدان إلى أقصاه (ص ٥٨). يرصد من الشرفة تحركات شارع قصر النيل منذ الصباح وفنجان القهوة بيده يراقب من هناك ومن هنا، وحين ينزل إلى الميدان يلتقي بالأصحاب والمعارف والأصدقاء. يلاحظ باعة السجائر والسوداني والسندويشات. عين الروائي تتفتح على واقع أجمل من جميع الأدبيات والقصص. نستمع معه إلى أصوات الميدان ونشم روائحه، كأننا نستعيد الصور التي سمّرتنا أمام الشاشات طوال ثلاثة أسابيع، ونردد الشعارات التي ابتكرتها الحشود وألهمتها نشوة الثورة (ص ٨٤ – ٨٥). كان هناك وعي بأن النظام سيخرج أشد شراسة، وأنه سيسعى للانتقام من معارضيه. لافتة تذكر أن "أنصاف الثورات أكفان الشعوب"، وأُخرى أن "شعباً يصنع نصف ثورة يحفر قبره بيده" (ص ٤٥). الكاتب يؤكد أن "الثورة ذات طابع وطني وتمثل كامل الطيف الوطني، وأن سر قوتها هو التعدد" (ص ٤٥). أمّا الإخوان فكثر "يسيرون جنباً إلى جنب مع باقي الاتجاهات" (ص ٦٥).

يدون الكاتب ما يراه، ويحاول أن يرصد أمنيات قسم من الحشود، وخلفياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فشباب الثورة، بحسب ما يقول (ويحلم)، "يريدون إنشاء دولة ديمقراطية حديثة تحترم القانون وتقوم على مؤسسات حقيقية" (ص ٤٧).

يعترف بأنه شعر بالارتياح حين رأى كاميرا "الجزيرة" المزروعة في الدور المطل على الميدان، "فهذه الثورة التي انطلقت اعتماداً على الوسائط الحديثة"، كما يقول، "تظل في حاجة لهذه الوسائط في معركتها ضد نظام متحجّر ولا يستحي، لكنه يحسب حساب الصورة التي سيراها الغرب" (ص ٦٧). وفي اليوم التاسع، يدون الشيطي:

"أبصرت دولة ميدان التحرير المحررة" (ص ٨٣). الشباب ينظمون صفوفهم ويحاولون الحدّ من جموح الجماهير أمام عنف بلطجية النظام. يصرخ أحد الشباب بمتظاهرين في ميدان التحرير كانوا يستعدون لرمي الحجارة على البلطجية بأن يلقوا الحجارة أرضاً، "فالثورة حريصة على أن تكون 'سلمية'، وعلى ألاّ تبدأ بالعدوان ضد البلطجية" (ص ٨٨). ومع الكاتب نعاين عن قرب المتاريس التي شُيّدت على مداخل الميدان موزعة على الشوارع، "متراس قصر النيل المطل على ميدان طلعت حرب [....] ومن الناحية الأُخرى [....] عند المدخل الآخر للميدان من ناحية شارع طلعت حرب [متراس حيث تجمعت] مظاهرة مؤيدة لمبارك" (ص ٨٨ – ٨٩). نبتسم للشعارات التي كتبها ورددها الثوار في الميدان، ونعاين النقاشات التي دارت مع رفاقه المثقفين بشأن الثورة وماهيتها. فمنذ البداية اختار الكاتب أن يكون مع الشباب ويثق بهم لكنه يخاف عليهم ويريد للثورة أن تستمر. كان الشيطي مع بقاء الثورة في الميدان ومع تطويرها، كما كان ضد إعادة انتشار الشرطة التي انسحبت من الشوارع، فهو مع الذين يعتبرون الشرطة "ذراع النظام للبطش والنهب" (ص ٩٨).

يكتب أن "على المظاهرة تطوير نفسها"، فهو يخشى من تحويلها إلى "حركة مطلبية" (ص ٩٣). شاهد الناس ينامون في الخيام وانتابه القلق إزاء فكرة عزلة الميدان وتحوله إلى "مولد شعبي" (ص ٩٤)، لكن الشعارات التي يبتكرها الثوار كل يوم تطمئنه. ففي ٦ شباط/فبراير، الساعة الثانية من بعد ظهر يوم أحد الشهيد، يقرأ لافتة ظهرت لأول مرة تقول "لا تفاوض ولا تمثيل إلاّ بعد الرحيل... لا حكماء ولا إخوان، المطالب في الميدان" (ص ٩٣). كان هذا "هو ردّ الميدان العاجل على ذهاب الإخوان للتفاوض مع نظام فقد شرعيته" (ص ٩٣ – ٩٤).

إصرار الثوار يؤتي ثمره الثلاثاء ٨ شباط/فبراير في "أسبوع الصمود"، إذ يعاين الكاتب أعداد الحشود التي فاقت المليونيات السابقة كلها. جماعات من شرائح متعددة: محامون، وأساتذة جامعات، وعمال يتحدثون عن التأميم... (ص ١٠٧). ويلخص المؤلف لنا أهم ما ورد في خطابات ذلك النهار، ويعلّق على الشعارات ويختار الأفضل منها. وهو يفضّل شعار "كفاح الشعب المصري" على "كفاح الطبقة العاملة" (ص ١١٠)، ويعطي رأيه في الإخوان المسلمين وينقل بعض التطورات السياسية. في ٩ شباط/فبراير، قبل انتصار الثورة بيومين، يكتب الشيطي أنه لا يصدق أن "هذا الشيء الذي يجري هو ثورة" (ص ١٢١)، ويعبّر عن هواجسه وأحلامه بـ "دولة مدنية حديثة، وبرلمان حقيقي، وحكم ديمقراطي" (ص ١٢١). خياله يأخذه بعيداً، لكنه يخاف، وهو يشاهد تدفق متظاهرين يحملون الأعلام واللافتات، من أن يتحول الميدان إلى مزار للنزهة والتقاط الصور التذكارية (ص ١٢٣). يعدد أخطاء السلطة ورأيه بالديكتاتور (ص ١٢٤)، ويذهل لهؤلاء الناس الذين في الميدان "هم مَن خضع طويلاً وداهن وهادن وتملّق وانحنى أمام الريح... كأنما يعتذرون عن سنوات صمتهم" (ص ١٢٤ – ١٢٥)، فيفيقون من غيبوبتهم، ويكتشفون ذواتهم.

وعلى الرغم من اليأس الذي كان ينتابه حين يغيب عن التظاهرة، فإن هذا الشعور يزول حين يعود إليها ويراها "في كامل عنفوانها كأنها بدأت للتو" (ص ١٢٥)، "فتزيل هواجسي حول التاريخ الدامي للثورات العظمى المجهضة" (ص ١٢٥ – ١٢٦)، ويعبّر عن مشاعره وخوفه وأمله ويتعجب من الحشود التي تتغير وتتلون، ومن الجماهير التي تدخل إلى التظاهرة "كما لو كنا في عيد" (ص ١٢٦). "عبقرية هذه الثورة المصرية أن الكل قائد حتى مَن حضر وشارك لمدة دقائق" (ص ١٢٧)، إنها عبقرية بسيطة "كالماء والهواء" (ص ١٣٥).

كارمن أبو جودة
باحثة وصحافية لبنانية